



يوم ركّزت وسائل الإعلام الروسية على منظر أحد المتطرفين وهو يأكل كبد إنسان ميت في مقطع الفيديو (حتى أن بوتين نفسه عبر في ذلك الحين عن سخطه واصمتزازه في مواجهة الحدث المدان بكل المقاييس)، أدركنا أن روسيا هي في طريقها إلى تغيير دورها في الوضع السوري من موقع المتحالف الداعم إلى موقع المشارك المنفذ.

فالرئيس الروسي لم يسبق له أن عبر عن مثل هذا الشعور وهو يشاهد ويتابع تقارير الاستخبارات الروسية، التي من المفترض أنها وضعته في صورة التفاصيل الدقيقة لوقائع مجازر النظام السوري في الحولة ومعرزاف وتلبيسة، وجرائمها الخاصة ببراميل البارود التي باتت جزءاً من المأثور السوري، وهي براميل يعرف بوتين جيداً أنها توزع الموت على الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى، ولا تطاول المقاتلين الذين يمتلكون القدرة على متابعة وتحاشي غباء تلك البراميل وحقدتها.

ولم يتوقف بوتين مطلقاً، على الأقل عبر الإعلام، عند مناظر أطفال ونساء مجرزة بانياس ومجربة الكيماوي في الغوطة.

وهذا مؤداه أن توقفه عند مشهد بغيض مقيت لحالة شاذة ندينها جميعاً حالة لا علاقة لها بالثورة السورية وقيمها، إنما كان ذلك ضمن إطار وضعية الانسجام والتضائف، بل التكامل المدروس مع استراتيجية النظام التي اعتمدها منذ اليوم لانطلاق الثورة السلمية.

وهي استراتيجية متمحورة حول فكرةربط بين الثورة السورية والإرهاب، وهي الاستراتيجية نفسها التي اعتمدتها النظام الإيراني في كل من العراق وسوريا، حتى أن الرئيس روحاني - الذي راهنَ بعض الشيء على دوره الإصلاحي، من موقع حسن النية - خرج على العالم ليتباهي بأن نظامه هو الأقوى والأكثر في مواجهة الإرهاب في المنطقة، وهو يعلم جيداً أن الإرهاب الذي يتحدث عنه متربّع متأصل في ذهنية ومارسات نظامه، وهو يتجسد في السعي المستمر لتصفية الخصوم المحليين والإقليميين، أو المغريّين خارج السرب سواء في العراق أم في لبنان أم في سوريا.

كما أنه يعلم جيداً أن نظامه الأصولي المذهبي النزعة قد تمكّن بالتحالف والتنسيق الفاعل مع النظام البعشي "العلمني" السوري من دفع الأمور في العراق بعد سقوط نظام صدام حسين نحو الفوضى العارمة، وذلك عبر تدبير التفجيرات والمذابح التي نفذتها قوى متباعدة المشارب والعقائد والمذاهب، ولكنها كانت جميعها محكومة بقواعد اللعبة التنسيقية بين الحليفين: الأصولي المذهبي، والبعشي "العلمني".

لقد أصبح الإرهاب فزاعة بالنسبة إلى الأنظمة الاستبدادية في المنطقة والعالم، فهو الدجاجة التي تبيض ذهباً. وهي فزاعة

تصنّعها الأنظمة المعنية، وتروج لها، وتمكّنها من الانتعاش والتمدّد، ومن ثم تعلن نفسها مناهضة لها، ومستعدة لمحاربتها، مستغلة الأوضاع الإقليمية والدولية، لتضع العالم أمام بديلين سينين: إما الأنظمة الاستبدادية الفاسدة الإفسادية، أو الإرهاب الظلامي المتواحش.

ولم يكن لهذه الفزاعة أن تصبح فاعلة هكذا، لو لا قبول الرأي العام الغربي بواقعيتها، وخشيته من مآلاتها.

وفي ما يخصّ الحالة السورية نرى أن لهذا الأمر أسبابه وعوامله التي من بينها إخفاق المعارضة السورية بمختلف أجنحتها في ميدان التواصّل مع الرأي العام المعنى بمؤسساته ومفاصله المؤثرة، وخاصة في العامين الأولين من الثورة حين كانت الأجواء مهيئة للتّفاعل إيجاباً مع مطالب السوريين.

بل انشغلت المعارضة المعنية بحساباتها الخاصة، وكان ذلك نتيجة تعاملها مع الوضعية بعقلية كسلولة اتكلالية، عقلية اعتمدت سلوكية انتظار تنفيذ الوعود العامة الضبابية التي كانت تتولى من دول مجموعة أصدقاء الشعب السوري، وذلك عوضاً عن العمل الجاد من أجل بناء القدرات الذاتية، وتنظيمها في مختلف الميادين وعلى مختلف المستويات.

ولكن يبقى للتردد الأميركي تأثيره الأكبر على صعيد عدم حسم الأمور لصالح الشعب السوري، مما أضعف قوى الثورة الميدانية، وأخرج المئات من الضباط القادة والأمراء، وعشرات الآلاف من ضباط الصف والجنود المنشقين خارج نطاق المعادلة، بل فتح الباب واسعاً أمام المتشددين والإرهاب، الأمر الذي استفاد منه النظام ضمن إطار استراتيجية العامة التي اعتمدها مع حليفه الإيراني والروسي.

الإدارة الأميركيّة لم تعتمد الحزم المطلوب في تعاملها مع نظام بشار الأسد، الحزم الذي كان من شأنه أن يفعل الكثير. والتجارب السابقة مع هذا النظام تؤكّد ذلك.

أما النهج وحيد الاتجاه الذي التزمته هذه الإدارة في تعاملها مع قضية الإرهاب في سوريا فهو الآخر خدم النظام، واسبغ قسطاً من المشروعية على مزاعم روسيا بخصوص مخاطر الإرهاب الإسلامي المتطرف.

فمنذ اليوم الأول كان واضحاً للجميع أن النهج المعنى لن يعالج المشكلة في سوريا باعتباره لا يعالج قضية الإرهاب بصورة متكاملة، وإنما كان يركّز الجهود حول داعش - النتيجة، في حين أنه كان يتناهى أو يتتجاهل أن النظام مصدر الإرهاب الداعشي وغيره. وكل ذلك تناغم أو تكامل بهذه الصورة أو تلك مع استراتيجية النظام وحلفائه.

القوات الروسيّة دخلت سوريا بدعة من رئيس فاقد للشرعية. وهي تمارس عدوانها على الشعب السوري عبر قصف مدنه وقراه، مرفقة بمؤازرتها الصريحة للنظام، ودعوة موسكو الصريحة بضرورة الإبقاء على الأسد.

ردود الأفعال العربية والدولية لم ترق بعد إلى المستوى المطلوب من جهة الإدانة والدعوة الحازمة إلى ضرورة التوقف عن التدخل، وإنما تراوحت بين الشجب الخافت، والامتعاض، والدعوة إلى التفاهم، وإمكانية التنسيق بخصوص الإرهاب.

بشار الأسد بوصفه عنوان مجموعة القرار في النظام هو أساس المشكلة. ولن تكون هناك أية إمكانية للحل من دون تجاوز هذه العقدة، وإبعادها عن العملية السياسية القادمة التي لا بد منها للوصول إلى الحل في سوريا. ومن هنا نرى أن مهمة المبعوث الدولي دي ميستورا مسودة الآفاق ضمن الأجواء الراهنة، وبناء على المعطيات المتوفرة حالياً.

أما الإصرار الروسي على دعم بشار بكل الأساليب، فهذا مؤداء حرب طويلة الأمد في سوريا، بل في المنطقة بأسرها، حرب ستؤدي إلى تغييرات في الجغرافيا السياسية، وانزياحات سكانية كبيرة، وهي تطورات ستكون لها، في حال حدوثها، تبعات

جسيمة على المستويين الإقليمي والدولي.

الحياة اللندنية

المصادر: